نجيب محفوظ ، حب تحت المطر
(القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٣)

كعادته ، يرسم نجيب محفوظ لنا لوحة اخرى. الا ان هذه اللوحة تختلف عن اللوحات السابقة لانها من نتاج ما بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ من جهة ، ولانها تعكس بصدق وواقعية فعل الهزيمة السياسي والاجتماعي في تركيبة وعلاقات الشعب المصري الانسانية من جهة ثانية .

« حب تحت المطر » هي ، بعبارة اخرى ، العلاقات الاجتماعية تحت الاحتلال . بطل الرواية هو الشعب المصري ، بجميع فئاته الشعبية وطبقاته الاجتماعية . الجميع متمثل في الرواية وبأدوار رئيسية ولكنها ليست متكافئة . نجيب محفوظ يحقق قفزة نوعية مذهلة في هذه الرواية . انه — وهذا ما يميزه عن الاخرين — يروي اوضاعا حاضرة ومنظورة ولا يصور نفسيات غيبية .

« حب تحت المطر » تطرح سؤالا كبيرا تتخبط جميع شخصيات الرواية تحت ثقله بدون ان يتوصلوا الى جواب له ، انه : « حرب أم سلام ؟ » . « الى اين تمضي الدنيا ، الى اين ؟ حرب أم سلام ؟ » انه سؤال مطروح في عمق أعماق مجتمع هادىء على السطح ، وفي داخله يتخذ الحب تحت الاحتلال الوان الحرب في الهزيمة. والواضح تماما في الرواية هو ان اصطدام شخصياتها — ابطال المجتمع — ، وابطالها في آن واحد ، بهذا السؤال الكبير ، اينما توجهوا واينما التجأوا ، يتسرب الى داخلهم كما تتسرب النار في كومة قش ، يحرك أعماقهم حتى في المسائل ذات الخصوصية البالغة ، حتى لو هربوا الى الحب .

وتتشابك شخصيات الرواية وتتداخل عبر شخصية مركزية اساسية ، الا انها ليست أكثر أهمية من غيرها من الشخصيات لان الجميع يتحركون تحت مظلة واحدة ، تحت الاحتلال ، حتى يكاد يبدو — وهذا هو الواقع — ان الاحتلال هو اكثر شخصيات الرواية أهمية ومركزية .

● عملية الفرز الطبقي واضحة ايضا في الرواية، وتبدو أكثر وضوحا عبر علاقات مجتمع يرزح تحت الاحتلال . فالاشد فقرا هم الاكثر عطاء ، ومنهم وقود المعركة وجنودها . والاشد فقرا هم الذين يقدمون الضحايا ، وهم المتحمسون « للقتال بلا قيد ولا شرط ، بلا خوف ... » . وهم الذين « لا يملكون الا الكرامة والاسطورة » ، والذين يؤمنون بالله ورسوله و « بالنص المكتوب » ! المسألة اذن ، طبقية ، حتى في الموت . لماذا تكون الطبقة الفقيرة المسحوقة هي المعطاءة دائما ؟ لانها ساذجة ؟ كونها ساذجة ، او واعية ، لا يؤخر او يقدم في شيء من مسألة وحجم عطائها ، انها حقيقة التاريخ وواقعه ، فهي دائما التي تضحي ، وهي في الوقت ذاته — تحت الاحتلال او بدون احتلال — التي تباع وتشرى ايضا .

● طبقة بقايا الاقطاع حاضرة وناشطة . تتمثل في الرواية بشخصية المحامي « حسني حموده » ذو السمعة الحميدة والشهرة الواسعة والمكانة المرموقة . الجماهير المسحوقة لا تزال تلجأ اليها وتطلب حمايتها والدفاع عنها (طلب « عليات » من المحامي « حموده » الدفاع عن ابيها) ، نظرا لنفوذها الواسع وقدرتها الكبيرة على المناورة والتحرك في ظل الاحتلال . انها طبقة ترحب علنا بالهزيمة طالما توفر لها « السلام والسعادة » ، وتنادي علنا « بحبها لاميركا » وهذا ما أعلنه « حسن حموده » بنفسه . وهي طبقة تتاح لها الفرص دائما في مثل هذا الواقع للمحافظة على تقاليدها العفنة الموروثة . انها لا تزال تحافظ على اسرارها وتخشى افتضاح امرها عندما توضع على المحك ، فهي تلجأ الى الهروب من المواجهة في مثل هذه الحالات كما حدث عندما رفض المحامي « حموده » الدفاع عن والد « عليات » قاتل « سمراء السحاتية » ، صديقة المحامي السابقة وابنة طبقته . هذا بالاضافة الى كون هذه الطبقة تسعى دائما لزيادة ثرائها وتوسيع ثروتها ولو تم ذلك على حساب عواطف واحاسيس ومصالح الاخرين . فحسن حموده يسعى جاهدا لاغواء « منى زهران » واقناعها بقبوله زوجا لها لانها فتاة « الاسرة ذات الدخل الوفير » .

● أما الطبقة البرجوازية المتوسطة ، فهي تتألق دائما في نعيم وافر وبحبوحة دائمة في مصر . وتتمثل في الرواية بشخصية المخرج السينمائي الذي